

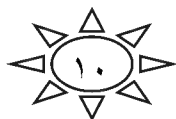
**الإحاطة في أخبار
غرناطة
للسان الدين بن الخطيب**

هذا المصدر الأدبي التاريخي لدى الوزارتين " لسان الدين بن الخطيب " ونسبه : محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماي " ، وهو قرطبي الأصل ، ويكنى " أبا عبد الله " ويلقب من الألقاب المشرقية " بلسان الدين " ويعرف بيته في القديم " ببتى الوزير " ثم " ببنى الخطيب " ثم انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية . مثل " يحيى بن يحيى الليثي " وأمثاله لدى وقعة " الربض " وهي وقعة تطلق على الثورة التي قام بها " أهل قرطبة " بتحريض الفقهاء ضد الحكم بن هشام أمير الأندلس ، وذلك لقصد خلعه وعزله وكان ذلك في شهر رمضان سنة " ٢٠٢ هـ " الموافق شهر مارس ٨١٨ م .

وقد بدأت في الربض الجنوبي لقرطبة في الناحية المسماة " شقندة " ولكن " الحكم بن هشام " استطاع سحق الثورة ومطاردة الثوار ، وتمزيقهم ، وقام بصلب الكثير منهم على شاطئ النهر ، وتقدم دورهم ، وفرّ الكثير من أعيان " قرطبة " وتفرقوا أيدي سباً في مختلف القواعد ، وسارت طائفة كبيرة منهم إلى المشرق ، ثم انتقل " لسان الدين بن الخطيب " بعد هذه الواقعة إلى " طليطلة " ثم تسربوا محوّمين على وطنهم قبل استيلاء الطاغية عليهم ، فاستقرّ منهم " بالموسطة " " الأندلسية " جملة من النبهاء والعلماء والفقهاء والأعيان مثل " عبد الرحمن " قاض بلدة " باغة " (٢) وغيره .

ويقول " لسان الدين الخطيب " وقد قرأت كتاب الله على " المكتب " يعنى صاحب الكتاب الذي يتلقى فيه التلاميذ حفظ كتاب الله " القرآن الكريم " وكان محفظه يتحلى بالتقوى والصلاح ، والتبحر في علوم القرآن الكريم . وهو الأستاذ الصالح " أبي عبد الله بن عبد الولي العواد " (٣) ، وكان ذلك كتابة ثم حفظاً ، ثم تجويداً إلى

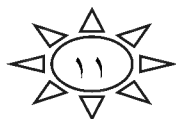
٢ - الإحاطة في أخبار غرناطة ج ٤ ص ٣٩ وما بعدها ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، عام ١٩٧٧ هـ ، ١٩٧٧ م .
٣ - ذاته ص ٤٥٧ .



مقرى أبى عمرو " ثم الخطيب أبى الحسن القيجاطى " فقرأ عليه " لسان الدين " القرآن والعربية ، ويقول عنه وهو أول من التففت به ثم لازم قراءة العربية والفقہ والتفسير على الشيخ أبى عبد الله بن الفخار البيرى . ثم قرأ على " أبى عبد الله بن بكر " - رحمه الله - وتأدب على يد الشيخ الرئيس " أبى الحسن بن الجياب " كما روى عن كثرة كاثرة ممن جمعهم الزمان بهذا القطر من أهل الرواية من أمثال المحدث " أبى عبد الله بن جابر " وأخيه أبى جعفر ، والقاضى الشهير " أبى البركات بن الحاج " والشيخ المحدث الصالح " أبى محمد بن سلمون " وأخيه القاضى " أبى القاسم " وأبى عمرو بن الأستاذ أبى جعفر بن الزبير " والأستاذ اللغوى " أبى عبد الله بن بيش " والمحدث الكاتب " أبى الحسين التلمسانى والشيخ الحاج " أبى القاسم بن البناء " وأبى محمد الزرقون " وغير كثير من أئمة العلم فى شتى فنون المعرفة ذلك الأمر الذى جعله عالماً كاتباً إماماً من طرزٍ فريد .

وقد ساعد على ذلك العصر الذى عاش فيه " لسان الدين بن الخطيب " فقد كان القرن الثمن الهجرى فى مملكة " غرناطة " بالنسبة لدولة التفكير والأدب ، عصر النضج والزهارة . وفيه ظهرت طائفة من أكابر المفكرين والشعراء الذين أعادوا روعة الأدب الأندلسى ، فى أعظم عصوره مثل " ابن سلطور الهاشمى " ، وابن خاتمة الأنصارى " شاعر " ألمرية " والوزير أبو عبد الله بن الحكيم اللخمى " والوزير " أبو الحسن الجباب " وابن جزى " والوزير " ابن الخطيب " والوزير " ابن زمرك " وأو سعيد بن لب ، وغيرهم ممن حفل بهم هذا العصر ، وزخرت دولة التفكير والأدب بآثارهم . وكان ابن الخطيب من بين هذا الحشد الحافل ، أعظم شخصية ظهرت بالأندلس فى القرن الثامن . وكان ابن الخطيب عبقرية متعددة النواحي ، كثيرة الجوانب ، فهو طبيب وفيلسوف .

وقد ساعد على ذلك العصر الذى عاش فيه " لسان الدين بن الخطيب " فقد كان القرن الثمن الهجرى فى مملكة " غرناطة " بالنسبة لدولة التفكير والأدب ،



عصر النضج والازدهار . وفيه ظهرت طائفة من أكابر المفكرين والشعراء الذين أعادوا روعة الأدب الأندلسي ، فى أعظم عصوره مثل " ابن سلطور الهاشمى " وابن خاتمة الأنصارى شاعر " ألمرية " والوزير " أبو عبد الله بن الحكيم اللخمى " والوزير " أبو الحسن الجباب " و " ابن جزى " والوزير " ابن الخطيب " والوزير " ابن زمرك " " وأبو سعيد بن لب " وغيرهم ممن حفل بهم هذا العصر ، وزخرت دولة التفكير والأدب بآثارهم .

وكان ابن الخطيب من بين هذا الحشد الهائل ، أعظم شخصية ظهرت بالأندلس فى القرن الثامن . وكان ابن الخطيب عبقرية متعددة النواحي ، كثيرة الجوانب ، فهو طبيب وفيلسوف وكاتب وشاعر . ومؤرخ بارع ، ووزير وسياسى ثاقب النظر ، قوى الادراك . وكان يمثل بعبقريته وقوة نفسه، وأصالة تفكيره ، وروعة بيانه ، وجزالة شعره أعظم ما تمخضت عنه الأندلس الكبرى ، وكان بتعدد جوانبه وسعة أفقه ، ورحابة فكره ، مزيجا من عبقریات متعددة بلغ " ابن الخطيب " القمة فى كل منها . ونراه يقص علينا حوادث حياته الشخصية والسياسية خاصة فى كتابه " نفاضة الجراب " و " اللمة البدرية " و " ريحانة الكتاب " .

وقد ولد " ابن الخطيب " فى الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٧١٣ هـ ، ١٦ من نوفمبر سنة ١٣١٣ م . ومن رائق شعره ما أنشده بين يدي السلطان " أبو عنان " :-

علاك ما لاح فى الدجى قمر
ما ليس يستطيع دفعه البشر
لنا فى المحل كفك المطر
لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
فى غير عليك ماله وطر

خليقة الله ساعد القدر
ودافعت عنك كف قدرته
وجهك فى النائبات بدر دجى
والناس طرا بأرض أندلسى
وغاية الأمر أنه وطن

وتأثر السلطان لإنشاده أيما تأثر ، ووعد بإجابة سائر مطالبهم . ويصف لنا " ابن الخطيب " نجاح سفارته فيقول :-

" وكان الانصراف بأفضل مما عاد به سفير من واد أصيل وإمداد موهوب ، ومهاد ومهاداة أثيرة ، وقطار مجنوب محمول ، وطعمة مسوغة ، وكان الوصول في وسط محرم سنة ست وخمسين وسبعماية ، وقد نجح السعى ، وأثمر الجهد وصدقت المخيلة " (٤)

توابعه :-

وللعالم الجليل واحد عصره ، ونادرة زمانه " لسان الدين بن الخطيب " كثرة كائنة من التوابع العجيبة ، التي تعج بالفوائد الجمّة ، والمعارف الغزيرة التي خلدهت خلود الزمن وسارت مع الركبان ، وأفاد منها القاص والداني وما تزال نبراسا يضيء الطريق لطلاب العلم ، وعشاق المعرفة .

من بين هذه التأليف . دينكم المصدر الذي نحن بصدد دراسته وهو :-

أولاً : الإحاطة في أخبار غرناطة (٥) .

ثانياً : اللوحة البدرية في الدولة النصرية .

ثالثاً : الحل المرقومة .

رابعاً : السحر والشعر .

خامساً : ريحانة الكتاب .

سادساً : الصيب والسهم .

سابعاً : نفاضة الخراب .

ثامناً : رجز الأغدية .

تاسعاً : رجز السياسة .

١- الإحاطة ج ١ ص ٢٣ بتصرف

٢- ذاته ص ٤٥٩ وما بعدها .

عاشراً : كتاب الوزارة ومقامة السياسة .

وغير ذلك من مؤلفاته العجيبة والتي ما تزال معينا ثرا ينهل منه طلاب العلم ، وعشاق المعرفة ومن بين هذه المؤلفات مؤلفات تاريخية ينقلها المقرئ في كتابيه " نفح الطيب " و " أزهار الرياض " وإليك بعضها :
أولاً : كتاب الإحاطة والذي نحن بصدد دراسته .

ثانياً : الكبسة الكامنة فيمن لقينته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة .

ثالثاً : التاريخ المحلي في مساجلة المعلى .

رابعاً : كناسة الدكان بعد انتقال السكان . وقد وضعه ابن الخطيب في بداية إقامته الأولى " بسلا " منفيا بالمغرب .

خامساً : معيار الاختيار في ذكر المشاهد والديار . أو في ذكر المعاهد والآثار . إلى غير ذلك من كتب التواريخ التي تخصه (٦).

بين يدي الكتاب

كتاب " الإحاطة في أخبار غرناطة " أو " الإحاطة بتاريخ غرناطة " أو " الإحاطة في تاريخ غرناطة " أو " الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة " وهو بلا ريب أشهر كتب " لسان الدين بن الخطيب " وأكثرها قيمة وأهمية بل ومن أضخمها . والكتاب لا يعد تاريخاً لغرناطة بالمعنى المحدود ، ولكنه يعد موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بهذه المدينة الأندلسية التالدة ، من الأخبار والأوصاف والمعالم ، فهو يتناول وصفها ، وجغرافيتها وخططها ، ومواقعها ، وما يحيط بها ، من المروج والجبال ، ثم يتناول تاريخها منذ نزل بها العرب الأوائل ، وأخبار من كان بها . ومن نزلها ، أو مر بها من الكتاب والشعراء والأدباء والوزراء والمتغلبين ، كما يتضمن خلاصة لتاريخ الدولة النصرانية منذ عصر مؤسسها " محمد بن يوسف بن الأحمر "

١ - نفح الطيب للمقرئ وكذا أزهار الرياض .

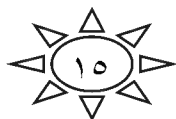
حتى عصر المؤلف وهذا عدا ما يورده المؤلف خلال موسوعته من تراجم فياضة لملوك الدولة النصرية المتعاقبين .

كما أن الكتاب يورد لنا تراجم لطائفة كبيرة من الأعلام والأكابر الذين عاشوا في غرناطة ، أو نزلوا بها أو وفدوا عليها في مختلف عصور التاريخ الأندلسي . ويفيض في ذكر معاصريه من الملوك والوزراء والشيوخ والأقران ، ويعنى عناية خاصة بترجمة أكابر العلماء والكتاب والشعراء من معاصريه ، سواء في الأندلس أو المغرب ثم يورد لنا كثيرا من شعرهم ونثرهم .

ويضم كتاب " الإحاطة " من هذه التراجم زهاء الخمسمائة . ويتناول " ابن الخطيب " من خلال هذه التراجم تاريخ عصره ، وملوك عصره ، سواء في الأندلس ، أو المغرب ، بدقة وإحاطة ، ويصف ما وقع فيه من الأحداث السياسية والعسكرية ، وصف الخير الحاذق الماهر العارف بالأمور معرفة الخير المطلع على أسرارها الواقف على أخبارها . كما نراه لا يلتزم بالترتيب التاريخي لمن ترجم لهم بل يلتزم بالترتيب الأبجدي وتلك طرق العلماء ، وسبيل النجباء ، وديدن النابهين والأذكياء . بيد أنه لا يلزمه بطريقة دقيقة .

ويذكر لنا " ابن الخطيب " مصادره في مقدمته ، وفي سياق كتابه ، وفي مقدمتها : تواريخ ابن القوطية ، وبنى الرازي و" المقبس " لابن حيان " و" قلائد العقبان " للفتح بن خاقان " و" الذخيرة لابن بسام " و" تاريخ مالقة " لابن عسكر . و" البيان المقرب " لابن غداري المراكشي ، وروس القرطاس لابن أبي ذرع الفاس نسبة إلى مدينة " فاس " إحدى مدن المغرب العربي - إلى غير ذلك من أمثال الطالع السعيد في تاريخ بنى سعيد إلى آخره ...

ويبدو أن " لسان الدين بن الخطيب " ألف كتاب " الإحاطة " قبل محنته الأولى ، حينما عزل سلطانه ، ونفى معه إلى المغرب وكان ذلك في سنة (٧٦١) هـ



واستأنف الكتابة فيه بعد عودته من منفاه بالمغرب إلى " غرناطة " فى سنة ٧٦٣ هـ واستمر " ابن الخطيب " فى الوزارة زهاء عشرة أعوام ، وكانت هذه الحقبة من ألمع فترات حياته . بل وكانت هذه الحقبة أكثر الحقب استقراراً ، ونُضجاً وفى هذه الحقبة وضع " ابن الخطيب " جُلّ كتبه ورسائله .

وأتم كتاب " الإحاطة " قبل سنة ٧٩٦ هـ وذلك وحسبما يبدو مما كتبه " ابن الخطيب " إلى ابن خلدون فى رسالة مؤرخة فى جمادى الأولى سنة ٧٩٦ هـ وفيها يقول له :

" إنه بعث بنسخة من " الإحاطة " إلى المشرق وهو مستمر فى إتمامها وتنقيحها حتى أوائل سنة " ٧٧٢ هـ " والمجلد الأول من كتاب الإحاطة ينتهى بقسم من ترجمة " محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج ابن يوسف بن نصر " والمجلد الثانى يبدأ ببقية ترجمة السلطان الأسبق آنف الذكر ، وأول تراجمه " محمد بن يوسف بن محمد بن حمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجى " وينتهى بترجمة " محمد بن على بن عبد الله اللخمى " ويحوى الجزء الثالث على تراجم تبدأ بترجمة " محمد بن على بن فرج القربليانى " وينتهى بترجمة " يحيى بن إبراهيم بن يحيى البرغواطى " ومكتوب فى نهايتها " كمل مختصر الإحاطة " ثم يلى ذلك ترجمة " ابن الخطيب " لنفسه .

والاحاطة مطبوع بتحقيق الأستاذ " محمد بن عبد الله عثمان " ويقع فى أربع مجلدات. نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ولدينا الطبعة الثانية بتاريخ ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م.

نماذج من الكتاب

(أحمد بن حسن بن باصة الأسلمى)

المؤقت بالمسجد الأعظم بغرناطة وأصله من شرق الأندلس ، وانتقل إليها والده ، ويكنى " أبا جعفر " كان نسيج وحده ، وقريع دهره ، معرفة بالهيئة وإحكاماً للآلة الفلكية ، ينحت منها بيده ذخائر ، يقف عندها النظر والخبر ، جمال خط ، واستواء صنعة ، وصحة وضع ، بلغ فى ذلك درجة عالية ، ونال غاية بعيدة ، حتى فضل بما ينسب إليه من ذلك كثيراً من الأعلام المتقدمين ، وآزرت آلاته بالحمائريات ، والصفاريات وغيرها من آلات المحكمين ، وتعالى الناس فى أثمانها ، أخذ ذلك عن والده " الشيخ المتقن " شيخ الجماعة فى هذا الفن ^(٧).

نموذج آخر

وهو ترجمة من التراجم التى أودعها " ابن الخطيب " كتابه وهى للشاعر " .

(محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطلة الدوينى)

ويكنى أبا القاسم " وكان الشاعر الدوسى حسن الصورة ، لازم القراءة على شيوخ بلده ، ونظم الشعر على الحداثة ، وترشح للكتب بالدور السلطانية مع الجماعة ، ممن هو فى نظمه . ومن شعره :

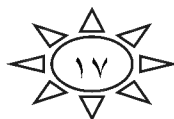
أحسب وحده يوم رأسك ربما تغطي السّلامة فى الصراع سلّما ^(٨)

وهذه ترجمة للشاعر : (محمد بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن أحمد

بن يوسف بن أحمد الغساني) : وهو من أهل غرناطة ، ويكنى " أبا عبد الله " . وكان محدثاً نبيلاً حاذقاً ذكياً ، وله شرح جليل على كتاب " الشهاب " واختصار

٧ - الإحاطة ج ١ ص ٢٠٤ .

٨ - ذاته ج ٢ ص ٢٥٥ .



حسن في " اقتباس الأنوار " للرّشاطي ، وكان كاتباً وافر الحظ من الأدب ، يقرض شعراً لا بأس به .

ومن شعره في ذكر أنساب طبقات العرب :

الشعب ثم قبيلة وعمارة	بطن وفخذ والفضيلة تابعة
فالشعب يجمع للقبائل كلها	ثم القبيلة للعمارة جامعة
والبطن يجمعه العمار فاعلمن	ذو الفخذ يجمعه البطون الواسعة
والفخذ يجمع للفضائل كلها	جاذت على نَسَقٍ لها مُتَّابعة
فخزيمة شعب وإن كنانة	القبيلة عنها الفضائل شاسعة
وقريشها تسمو العبارة يا قتي	وقصّ بطن الأعادي قاسعة
ذا ما ثمّ فخذٌ وذا عباسُها	إلا الفضيلة لا تُنَاطُ بسابعة

وقد ولد شاعرنا بمدينة " غرناطة " سنة ثمان وستين وخمسائة ، وكانت وفاته بمدينة " مرسبة " في شهر رمضان سنة " تسع عشرة " وستمئة (٩).

(علي بن صالح أبي البيت الأسعد بن الفرج بن يوسف)

وهو " طرطوشي " الأصل ، سكن " دانية " ويكنى " أبا الحسن " ويعرف " بابن عز الناس " . وقد كان عالماً بالفقه ، حافظاً لمسايله ، متقدماً في علم الأصول ، ثاقب الذهن ، ذكي الفءاد ، بارع الاستنباط ، مسدد النظر ، متوقد الخاطر ، فصيح العبارة ، ذا حظ مروض وقد روى عنه : أبو بكر أسامة بن سليمان ، وسلمان بن محمد بن خلف ، ويحيى بن عمر بن الفصيح .

وله مصقات كثير منها : = كتاب العزلة ، وشرح معاني التحية . وقد ولد بطرطوشة سنة ثمان وخمسائة وتوفي رحمه الله بمدينة " دانية " وكان قد قتل مظلوماً ، بإذن " ابن سعيد الأمير " رى رمضان سنة ست وستين وخمسائة (١٠) .

٩ - ذاته ج ٣ ص ١٧٥ .
١٠ - ذاته ج ٤ ص ١٨٣ وما بعدها .